دربار الهند

الدربار كلمة فارسية معناها بلاط الملك او حفلة استقباله لوزرائه ووجهاء بلاده استعملها الانكليز اولاً سنة ١٨٧٧ للاحتفال بتلقيب الملكة فكتوريا سلطانة للهند . وقد اقاموا دربارًا آخر في غرة هذا العام بمدينة دهلي احتفالاً بتتويج ملكهم سلطانًا على بلاد الهند وقال الذين شهدوا الاحتفال انهُ اعظم مشهد تجلَّت فيهِ آيات الابهة والفخامة وتمثلت صورة العز والسودد حيث اجتمع الملوك والامراء من جميع انحاء السلطنة الهندية والبلاد المجاورة لها. فان امام المسجد الجامع الذي اقامهُ السلطان شاه جهان في مدينة دهلي على دكة عالية وجعلهُ آية الدهر في فخامة البناء وجمال النقش ساحةً كبيرة شهدت كثيرًا من مشاهد المجد والابهة في سالف عهدها حتى اختار لورد كرزن حاكم الهند ان يقيم الدربار الآن كما اقيم سنة ١٨٧٧ لكن دربار هذا العام كان اعظم من ذاك وافخم لانهُ اشترك فيهِ كل امراء الهند ورؤسائها . فترك السلَّم العريض المؤدي الى المسجد ليقف عليهِ السلمون وخصص الرواق الذي امامهُ للاوربيين ونوَّاب البلدان المجاورة كسيام ونبال وغوى والمستعمرات الفرنسوية . والجانب المواجه للمسجد تحت اسوار القصر لامراء الهند واتباعهم حسب درجاتهم ومراتبهم وقفوا فيهِ راكبين على افيالهم وهوادجها الفضيَّة تتألق في شمس الظهيرة وبعدهم الوف الجنود حسب فرقهم وصفوفهم

ولما تكبَّدت الشمس السماء في التاسع والعشرين من شهر دسمبر الماضي أُطلقت المدافع ايذانًا بوصول لورد كرزن الى محطة دهلي وبعد ربع ساعة أُعيد اطلاقها اشارة الى وصول دوق كنوت وزوجتهِ . وبين المحطة وساحة الدربار ميل ونصف فسار موكب اللورد وموكب الدوق وتلتهما مواكب امراء الهند وكان امام موكب اللورد حرس الشرف يقودهُ الجنرال كولنس وبعدهُ التذير ومعهُ اثنا عشر مبوقًا ستة منهم انكليز بخوذ بيضاء وستة هنود بعمائم مذهبة الحواشي وابواقهم من الفضة وحاملهم من المخمل المزركش بالذهب وهم راكبون خيولاً دهماء ثم حرس آخر من الهنود على خيول شهب ثم حرس ثالث من الامراء واولاد الامراء الذين يرتفع نسبهم في شجرات الهند قرونًا عديدة وحلاهم وحلاهم تبهر الابصار وريش الذهب يلوح فوق عمائمهم وهم على خيول دهم مسروجها مغطاة بجلود النمورة. ثم تلامذة المدرسة الحربيَّة وفي مقدمتهم مهرجًا إدار السر برتاب سنج ووراءهُ مهرجا جذبور ومهرجا كشنغار ومهرجا ذلبور ورجًا رتلام ونوَّاب جاورا وعشرون نائبًا من اشرف بيوتات هندستان ووراء ذلك الافيال مطايا كل موكب عظيم في بلاد الهند وهي تسير الهوينا سير الجبابرة العتاة كأنها البوارج

المدرعة تخر بحر ذلك المشهد الوقور . وكان على الافيال الاولى اركان حرب الحاكم العام واركان حرب الدوق ورجال حاشيتيهما ثم جاء بعده فيلان كبيران يفوقان سائر الافيال ارتفاعاً وضخامة فلما باتا من ساحة الدربار عزفت الموسيقى بالنشيد الوطني والتفت الجمع الى الهودج الذي على الفيل المتقدم فاذا فيهِ الحاكم العام لورد كرزن منتصب القامة طلق المحيا وهو يشير بيدهِ مسلماً على الجماهير المتحفزة لاستقبالهِ والى جانبهِ زوجتهُ تزيد طلعتها المشهد بهجة وجمالاً

وهذا الفيل لمهرجانات وهو الذي اقلّ لورد لتن لما اتى دهلي لمثل هذا الاحتفال سنة ١٨٧٧ وهودجهُ من الفضة الخالصة معلم بالذهب ويتدلّى منهُ حلسا حرير يصلان الى الارض على كلٍّ منهما شمس واسود من الذهب الوهّاج وامامهُ وعلى جانبيهِ رمّاحة رماحهم من الفضة وعذباتها من الذهب . والفيل الثاني يقل الدوق والدوقة وهو كالاول قدراً وعظمةً هودجهُ من الفضة معلم بشعار مهرجاجيبور وهو فهد ذهب واثب على غزال وحلساهُ معلقان بصورة الشمس والاسود

وهنا ابتدأت مجالي الابهة بما يفوق وصف الواصفين فان الافيال التي تبعت فيلي الحاكم والدوق اقبلت اثنين اثنين تقلّ اقيال الهند خمسين اميراً ووراءهم خمسون فيلاً اخرى تقل المهرجات والرجات والنوّاب . يرى الناظر المطل عليها بحراً من الحرير والمقصب زبدهُ الذهب والفضة تتلألأ فيهِ فرائد الجواهر من الماس والياقوت والزمرد وتتألق الدرر الغوالي على الحلل والعمائم ولا يسمع منهُ الّا صوت جلاجل الفضة والذهب من اعناق الافيال وحواشي الهوادج

ثم اقبلت صفوف المركبات تقلّ حكام الولايات ورؤساء دوائر الحكومة . ثم القائد العام لجنود الهند لورد كتشنر بطل السودان والترنسفال منتصباً على ظهر جوادهِ عابس الوجه بادي المهابة كالاسد الرئبال وامامهُ اركان حربهِ من جنود بريطانيا وجنود الهند ووراءهُ رمّاحة بنغالا وبهم خدام الموكب . ولكنهم لم يكادوا يصلون الى ساحة الدربار حتى دارت الافيال التي كانت واقفة فيها وسارت وراءهم وهي مئة وخمسون فيلاً سارت سيراً وئيداً فماجت بها الارض ومادت وهي لاتباع امراء الهند وزينتهم تقلّ عن زينة اسيادهم لكنها ليست دونها بهاء . وقد اقتضى مرور هذا الموكب من محطة سكة الحديد الى ساحة الدربار ساعتين كاملتين وكانت سطوح دهلي وشرفاتها وكواها وكل مصطبة فيها غاصة بجماهير المشاهدين وهم بابهى الحلى والحلل . ولما وصل الموكب كلهُ الى الساحة وقف لورد كرزن ودوق كنوت واصطف الامراء في اماكنهم ثم تفرقوا الى خيامهم ومنازلهم على ان يجتمعوا ثانية في غرة العام الجديد للاحتفال بالدربار

وفي الوقت المعين اجتمع في ساحة المهرجان اكثر من اربعين الفاً من الجنود والقواد بقيادة البطل الباسل اللورد كتشنر واقبل اللورد كرزن بموكبهِ الحافل وجلس على عرش من الذهب والفضة

ممثلاً ملك الانكليز وجلس دوق كنوت اخو الملك على عرش آخر ووراءهما دوقة كنوت ولادي كرزن ثم حاشية الحاكم وحاشية الدوق وحول الجميع الاقيال والامراء والعظماء حسب مقاماتهم .

ولما انقطع دوي المدفع الاخير من مدافع السلام تقدم ناظر خارجية الهند الى امام لورد كرزن واستأذنهُ في افتتاح الدربار فاذن لهُ في ذلك فاشار الى رئيس فرق الموسيقى فقرعت الطبول ونفخ في الابواق وارتفعت الاصوات الموسيقية ثم دخل النذير ووراءهُ المبوقون ودنوا من العرش وسلموا فامرهُ الحاكم ان يقرأ منشور الملك الذي يعلن فيهِ تتويجهُ امبراطوراً على الهند فقرأهُ بصوت رنّان سمع في كل ناحية من نواحي المشهد وهذا تعريبهُ

"حيث اننا ارتقينا الى عرشنا باسم ادورد السابع بنعمة الله ملك مملكة بريطانيا العظمى وارلندا المتحدة حامي الايمان وامبراطور الهند حين وفاة ملكتنا السعيدة الذكر الملكة فكتوريا في الثاني والعشرين من شهر يناير سنة الف وتسعماية وواحدة لمخلصنا

"وحيث اننا اعلنّا رغبتنا المتكية بنعمة الله القدير في الاحتفال بتتويجنا في السادس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٠٢ .... وتمكّنا بنعمة الله القدير وبركتهِ من اقامة الاحتفال المذكور يوم السبت في التاسع من شهر اغسطس الماضي

"وحيث اننا نودّ ونريد ان ذلك الاحتفال يعلن لكل رعايانا المحبوبين في ممالكنا الهندية وان يباح لحكامنا ونوابهم ورؤساء الادارات وامراء الولايات الوطنيّة التي تحت حمايتنا ورؤسائها وشرفائها ولنوّاب كل الولايات في سلطنتنا الهندية ان يشتركوا في هذا الاحتفال

"فنحن نعلن بهذا المنشور ونأمر ونوصي وزيرنا الامين المحبوب جورج نثانائيل لورد كرزن نائبنا في بلاد الهند الذي يقيم في مدينة دهلي في غرة يناير سنة ١٩٠٣ دربارًا امبراطوريًا لكي يُعلن فيهِ اتمام الاحتفال بتتويجنا. ونأمر ان يقرأ هذا المنشور في الدربار المشار اليهِ لكي يعلم بهِ كل من يهمهُ

"صدر من بلاطنا بسنت جمس في غرة اكتوبر سنة ١٩٠٢ في السنة الثانية من ملكنا"

ولما تمّ النذير تلاوة هذا المنشور صدحت الموسيقى واطلقت المدافع وهتف الجمهور بالدعاء. ثم نهض لورد كرزن وخطب في الجمهور خطبة طويلة قال فيها

"منذ خمسة اشهر تُوّج جلالة الملك ادورد السابع في مدينة لندن ملكاً لانكلترا وامبراطوراً لبلاد الهند . ولقد كان من نصيب القليلين من نوّاب هذه البلاد ان يشهدوا ذلك الاحتفال

"والآن اتاح جلالتهُ لكل اهاليها ان يشتركوا في ذلك الاحتفال فاجتمع الامراء والرؤساء والشرفاء الذين هم عماد عرشهِ ورجال الحكومة من الاوربيين والهنود القابضين على زمام الاحكام باستقامة وامانة لا مثيل لها والجنود البريطانيون والوطنيون الذين يحمون حمى الوطن

وجمهور السكان من كل الشعوب والامم على اختلاف احوالهم ومذاهبهم احتفلوا ليظهروا ولاءهم للعرش الامبراطوري . ولقد امرني جلالتهُ ان اقيم هذا الدربار احتفالاً بتتويجهِ في بلاد الهند وبعث اليها باخيهِ دلالةً على ما لهذا المشهد في نفسهِ من سمو المقام

"وفي مثل هذا اليوم منذ ست وعشرين سنة وفي هذه المدينة المشهورة في تاريخ الهند شهرة فائقة وفي هذه الساعة عينها جرى الاحتفال بتسمية الملكة فكتوريا امبراطورة لبلاد الهند اثباتاً لاهتمامها بامر رعاياها الهنود ولاتحاد ممالك الهند تحت العلم البريطاني. والآن لم يقلَّ ذلك الاتحاد عمَّا كان بل زاد تمكُّناً والملك الذي اجتمعنا لنعلن خضوعنا لهُ لا نقلُّ محبة رعاياهُ الهنود لهُ عن محبتهم لامهِ لا سيما وانهم قد رأوا وجههُ وسمعوا صوتهُ . وقد رقي الى عرش لا مثيل لهُ في المكونة في العظمة والثبات ومن اقوى دعائمهِ السلطنة الهندية وخضوع اهاليها الهنود لهُ فان بلاد الهند مشهورة بطاعة شعوبها لملوكهم كما هي مشهورة بتقاليدها القديمة وقد خطب كثيرون من الملوك ودَّها فلم تلقِ قيادها الاَّ الى المملكة التي عرفت كيف تنال ولاءها

"لا يمكن ان يرى مثل هذا المشهد في مكان آخر على وجه البسيطة . ولا اقول ذلك من حيث كبر الحشد مع انهُ لا مثيل لهُ في ذلك بل من حيث ما يمثلهُ فان فيهِ مئة متسلط يتسلطون على اكثر من ستين مليوناً من النفوس وبلادهم تمتد على ٥٥ درجة من الطول (٣٣٠٠ ميل) ونحن نقدر العواطف التي حملتهم على المجيء الى هذه المدينة قدرها لا سيما وانهم اتوا من بلدان بعيدة جدًّا غير مبالين بالمشاق وسأتشرف بسماع التهانئ للملك من افواههم

"والقواد والجنود الحاضرون هنا يمثلون جنود الهند البالغ عددها ٢٣٠ الفاً والتي تفتخر بانها جنود الملك. ورؤساء الامم الهندية يمثلون ٢٣٠ مليوناً من النفوس . فقد اجتمع في هذا المشهد نوَّاب قوم لا يقلون عن خمس البشر وكلهم خاضعون لملك واحد وواقفون هنا لغرض واحد وهو الاعراب عن ولائهم لهُ. وان قيل كيف يكون لهذه الامم الكثيرة المتباينة المذاهب والمشارب غرض واحد قلتُ ان ولاءهم للسدة البريطانية كناية عن ثقتهم بعدل حكمها ولينهِ فليس هذا الولاء عاطفة من عواطف النفس بل هو نتيجة لازمة عن اختبارهم الطويل واعرابٌ عما هو راسخ في نفوسهم لان حكومة الملك قد نجَّت ملايين كثيرة منهم من الاعتداء الخارجي والفوضى الداخلية وضمنت لملايين اخرى حقوقها وامتيازاتها وفتحت امام غيرهم ابواب اكسب الحلال وشملت عامتهم بالرحمة والحنان في اوقات الضنك والضيق وهي تبذل الجهد لتشمل الجميع بالعدل وتدفع عنهم الضيم وتشركهم في نعم العلم والسلم . ان امتلاك هذه الممالك الواسعة الارجاء لامرٌ عظيم جدًّا لكنَّ حكمها بالعدل والانصاف اعظم منهُ والتوفيق بين اممها وجعلهم امَّة واحدةً

يحسن السياسة والادارة لاعظم من الجميع وهذا من الاغراض التي نسعى اليها في هذا الدربار

"وعليَّ الآن ان اقرأ لكم رسالة الملك التي طلب مني ان ابلغها الى شعبه الهندي وهي :

" يسرني جداً ان ابعث برسالة التحيَّة الى شعبي الهندي في الوقت الذي يحتفل فيه بتتويجي فقد تمكَّن قليلون من امراء الهند ونوَّابها من حضور الاحتفال في مدينة لندن ولذلك اوصيت نائبي حاكم الهند العام باقامة دربار عظيم في مدينة دهلي لكي يشترك امراء الهند ورؤساؤها وشعوبها ورجال حكومتي في تذكار تتويجي. ومنذ زرت بلاد الهند سنة ١٨٧٥ رسخ حب تلك البلاد وشعبها في نفسي. وانا عالم بولائهم لبيتي وعرشي وقد رأيت ادلة كثيرة على ذلك في السنين الاخيرة وكان للجنود الهندية اليد البيضاء والبلاء الحسن في حروب سلطنتي. وارجو ان ابني المحبوب برنس اوف ويلس وزوجته برنسس اوف ويلس يتمكنان قريباً من زيارة الهند البلاد التي كنت دائماً اود ان يراها وهما مشتاقان ايضاً الى زيارتها. وباحبذا لو امكنني ان ازوركم الآن واحضر هذا الاحتفال بنفسي ولكني قد بعثت اليكم باخي العزيز دوق كنوت المعروف في بلادكم لكي يكون نائباً عن عائلتي في حضور هذا الاحتفال . والغرض الذي اسعى اليه منذ خلفت والدتي السعيدة الذكر الملكة فكتوريا امبراطورة الهند الاولى هو ان احافظ على العدل والحنان اللذين اتصف بهما حكمها السعيد فرسخا حبها واكرامها في قلوب رعاياها . واني اكرر لحلفائي ورعاياي في كل بلاد الهند اني احافظ على حريتهم واحترم حقوقهم واسرُّ بتقدمهم وابذل جهدي في انجاحهم هذا هو غرضي الاقصى وغاية مرادي وسأوفق بنعمة الله القدير الى زيادة نجاح الهند وسعادة شعبها "

"ايا أمراء الهند وايا شعوبها هذه كلمات ملككم الذي اتينا لنحتفل بتذكار تتويجه وهي تبثُّ الغيرة في نفوس رجال الحكومة المنتظمين في خدمته وتعرب للجميع عن صدر رحيب ورغبة اكيدة في فلاحهم . واما لي ولاخواني الذين يشاركونني في ادارة الحكومة فهي دليل يرشدنا الى السبيل الذي يجب ان نتبعهُ في سيرنا واعمالنا. ولم يكن وقت من الاوقات كنَّا فيه اشد رغبةً منا الآن في ان تكون ادارتنا متصفة باللين والتؤدة . ولقد عرض علينا امراء الهند رجالهم وسيوفهم في حروبنا الحديثة وبذلوا هذه المنحة وهذه المروءة في تخفيف وطأة القيظ والقحط . ويصعب ان يُعطَوا اكثر مما نالوا ويتعذَّر ان يُزاد على الامن الذي هم متمتعون به الآن بعد ان ثبت انهُ موطَّد الاركان ومع ذلك يسرنا ان نشير على الحكومة ان تجاوز مدة ثلاث سنوات عن ربا كل القروض التي اقترضتها ممالك الهند من حكومة الهند او كفلتها الحكومة لها على اثر المجاعة الاخيرة ونرجو ان يكون ذلك مقبولاً "

وذكر كلاماً آخر من هذا القبيل واستطرد الى ما تمَّ في بلاد الهند من النجاح حتى الآن وما

يمكن ان يتمّ فيها ايضاً بحسن الادارة وقال ان هند المستقبل ستكون داراً للصناعة الواسعة والعقول المستنيرة والنجاح المتزايد والثروة الوافرة والنعيم المقيم الى ان قال "وانا عالم مقاصد بلادي وواثق بحسن نيتها وعظم مقدرتها ولكن هذا المستقبل السعيد لا يُنال الاّ اذا بقيت السيادة لها وحدها من غير منازع ورجائي الوطيد ان يبقى ذكر هذا المشهد في اذهان شعوب الهند زماناً طويلاً كعرب لهم عن عواطف ملكهم وان لا يُذكر الاّ بالبهجة والسرور وان يحيا مُلك الملك ادورد السابع في تاريخ الهند وقلوب شعبها. ونطلب من الله القدير المتسلط على الكون ان يديم حكم ملكنا سنين كثيرة ويزيد رفاهة شعبه يوماً فيوماً وان تمتاز ادارة رجاله بالحكمة والفضيلة ويبقى الامن موطّد الاركان في ممالكه ابد الدهر. ليحيَ الملك امبراطور الهند"

وكانت الجماهير تضجّ باصوات الابتهاج كلما سمعت عبارة تحرّك عواطفها بنوع خاص حتى اذا اتمّ لورد كرزن خطبتهُ تقدّم النذير ونادى بالمتاف للملك ثلاثاً فانتصب الجميع على اقدامهم وشاركوهُ في المتاف واجابهم اربعون الفاً من الجنود باصوات المتاف تحملها الرياح وتدوي بها الجبال والقيعان وصدحت الموسيقى بسلام الملك. ثم تقدم وزير الخارجية وطلب من الحاكم العام ان يأذن لهُ في احضار امراء الهند بين يديهِ لتقديم التهنئة فقاموا من مجالسهم عن يمين العرش وعن يسارهِ وتقدموا الواحد بعد الآخر اولهم نظام حيدر اباد الذي يتصل نسبهُ الى ابي بكر الصديق وهو متسلط على اكثر من احد عشر مليوناً من النفوس ثم مهرجا بارودا الذي بلادهُ من اغنى بلاد الهند واكثرها سكاناً بالنسبة الى ضيق مساحتها ثم مهرجا ميسور الذي بلادهُ تعلو بلاد النظام في اتساع مساحتها. فمهرجا كشمير الذي في بلادهِ اجمل جبال الارض وبحيراتها وهلمّ جرًّا الى ٩٨ اميراً او متسلطاً وهم يمثلون ٢٣١ مليوناً من النفوس التي تحت السيطرة البريطانية مباشرة ويتسلطون على ٦٣ مليوناً من الاهالي المحالفين للانكليز الداخلين في ولائهم. وبينهم اميرة بهوبال وكانت لابسة تاجاً بديع الصنعة فتقدمت وفي يدها سفط من الذهب وضعتهُ امام لورد كرزن فيهِ رسائل تهنئة للملك. وغيرهم من الامراء الموالين للدولة الانكليزية مثل خان خلاط وسلطان لحيج وسلطان الشحر وسلطان المكلاّ ومهتار شترال. وحلل هؤلاء الامراء والرؤساء تفوق الوصف وحلاهم تفوق التقدير وقد حضروا بمواكبهم العظيمة ومجالي عظمتهم وابهتهم ليشتركوا في اظهار دلائل الولاء للدّة البريطانية وواحدة منهم وهي زوجة مهرتا جيور قدمت الى لورد كرزن مئة الف ربية لتوضع في صندوق اعانة الجياع تذكاراً لهذا الدربار

ولما تمّ مرور الامراء طلب ناظر الخارجية ان يؤذن لهُ في ختم الدربار فخرج لورد كرزن وزوجتهُ والدوق وزوجتهُ بموكبيهما وتبعهم سائر الامراء والنوّاب بالاحتفال الذي دخلوا فيهِ